

# مُشكلةُ الحُكمِ في الإسلامِ

## بعد وفاة الرسول

«دراسةُ للمؤثراتِ الفاعلة في مرحلةِ الأصول»

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

ليس المقصود من هذه الدراسة ان نعيد سرد المعروف المتداول من اخبار حول وفاة الرسول الكريم وشعور منصب الرئاسة الدنيوية للمجتمع العربي المسلم ، وكيف آل الامر الى تولية أبي بكر منصب خلافة المسلمين ، فهذا مما تداولته الاقلام وسودت بأخباره صفحات طوال . ولكن المقصود هو البحث في التيارات التي كانت تعتمل في النفوس بعد نشوة النصر الكبير الذي حققه الاسلام ، والذي غدا بعد ذلك حقيقة تفرض وجودها بقوة العقيدة وصلابة المناهج عنها والمؤمنين بها من جهة ، وبانتصار السيف الذي جرد لحمايتها وفرضها على من عاند من جهة اخرى . فقد ظل الاسلام في مكة ، كما هو معروف ، ما يزيد على اثنتي عشرة سنة يرفع شعار « وجادلهم بالتي هي احسن » ، ويستعمل الحجة والمنطق في دحض مزاعم قريش وابرار تهافت دينها وتفسخ مجتمعا ، والتناقضات التي تزخر بها حياتها اليومية ، دونما جدوى . ولم يتحقق النصر للاسلام كعقيدة وكدولة الا حين وقف السيف ينافح عن العقيدة ويدعم حجتها بحد سنانها . وقد كان في هذا مؤشر هام لمن غدوا بعد انتصار الاسلام في الفترة المدنية في الصف الاول من مقاعد السلطة ، وشعروا انهم الركن الاساسي في قضية مستقبل الدولة بعد ان ينتقل الرسول الى جوار ربه ، لاسيما وان هذا الامر لم يبحث او يثر في حياة الرسول وظل سؤالا حائرا دون جواب في ضمائر الفئة التي كانت تعرف باسم الصحابة ، من مهاجرين وانصار ، لانها لم تكن تجزو على طرحه صراحة في دولة دينية يأخذ فيها نبي مرسل بزمام السلطة في المجالين الديني والدنيوي .

ولما انتقل محمد الى جوار ربه فتح الباب واسعا امام رؤوس الجماعة الاسلامية ليعتوا ما كانوا قد اسروا في حياته ، وغدت مشكلة من الامر بعد محمد ؟! الشغل الشاغل لهذه الفئة منذ ان سجي الرسول على فراش الموت في بيت عائشة .

وكانت ردود الفعل التي تعبر عن مصالح وتطلعات كل فئة من الفئات التي كانت تتمثل في مجتمع المدينة مستقر السلطة ، وفي بقية أرجاء الجزيرة العربية التي جاءت مبايعة في عام الوفود . وهنا ، وفي تحديدنا للمسار الذي ستأخذه الأحداث والعوامل الفاعلة فيها ، لابد من وقفة لتثبيت بعض الحقائق التي سنعتمدها أو نذكر بها في هذه الدراسة :

١ - الإسلام في الاصل دين انزل « ليخرج الناس من الظلمات الى النور ولتخليص الناس من الشرك وهدايتهم لعبادة الاله الواحد » . فهو بهذا المعنى سلوك وعبادات ومعاملات تكفل لمن يؤديها على وجهها الاكمل سعادة الدارين . ولم يفد الإسلام دولة بالمعنى الدقيق للكلمة الا بعد عهد الراشدين . وهنا اود ان اؤكد حقيقة يتناساها البعض وهي ان الإسلام كدولة تمارس سيادتها وتفرض قوانينها في المجالات الادارية والسياسية والدولية والاقتصادية والقضائية وسواها ، كانت بداياتها من صنع الصحابة الاول الذين آل الامر اليهم وغدوا قادة دولة فحسب ، بعد ان توقف الوحي بوفاة الرسول . وقد جوبهت دولتهم بما تواجه به اية دولة من أمور ومشاكل لا بد وان تنتظمها قوانين ، وبما ان هذه القوانين لا بد وان تتسجم مع الخطوط العريضة التي طرحها الإسلام في القرآن الكريم ووجدت تطبيقا فيما قاله الرسول او فعله او اقره ( السنة ) ، فقد قاسوا الاشياء على النظائر واجتهدوا وقرروا ما قرروه من قواعد وسنن . واضيف الى اجتهادهم فيما بعد آراء الفقهاء والائمة ، واتخذت المذاهب شكلها عند اهل السنة على الشكل الذي حددته المذاهب الاربعة . وهكذا فان الادعاء بأن دولة الإسلام التي قامت فيما بعد هي دولة الرسول ادعاء باطل ، ولا بد من التأكيد على حقيقة الدور الفكري الكبير الذي كان للصحابة والتابعين وائمة المذاهب الاربعة في صنع هذه الدولة والتشريع لها .

٢ - ان مبدأ قرشية الخلافة الذي اسفر عنه اجتماع سقيفة بني ساعدة لا يفهم الا من خلال شرح مفصل للتركيب السكاني لمجتمع المدينة عند وفاة الرسول ، واستقصاء لجذور هذا التركيب وهويته والعوامل الفاعلة فيه ، منذ الفترة السابقة لهجرة الرسول الى يثرب ، والاضاع الاقتصادية والاجتماعية والبشرية لهذا المجتمع قبل الهجرة ، وما طرأ على هذه الاوضاع خلال الفترة المدنية من حياة الرسول .

٣ - ان التيارات التي ظهرت في السقيفة لم تكن وليدة ساعتها وانما كانت تعبيرا عما يعمل في النفوس ومتنفسا لشكاوى لم يتبع لها ان تعبر عن نفسها خلال حياة الرسول .

٤ - ان كل دراسة لمشكلة الحكم في الاسلام بعيدا عن البيئة الطبيعية والاقتصاد الزعوي لبدو الجزيرة ، وانعكاس اكل ذلك على اوضاعهم الاقتصادية وتطلعاتهم السياسية ، دراسة ناقصة ، لا كان لهؤلاء البدو ذوي التقاليد والمواصفات المستمدة من بيئتهم من دور في نشر الاسلام واقامة دولته ، بعد ردتهم عنه ومحاولتهم اسقاط دولة قريش بزعامة ابي بكر الذي تسلم مقاليد الامور بعد وفاة الرسول .

بعد هذا ، واذا تجاوزنا الفترة المكية من حياة الرسول الكريم التي شغلتها احداث الدعوة للاسلام ومعارضة قريش لهذه الدعوة ، وانتقلنا الى الفترة المدنية التي غدا الرسول في نهايتها السيد الاوحد وصاحب الكلمة الاولى في مجتمع يوحد الاسلام على السطح وتعمل فيه تيارات مكمنة ، فيها شيء كثير من ارث الماضي بالنسبة للجماعات البشرية المختلفة التي كانت تسكنها قبل الاسلام ، هذا فضلا عن الوافدين الجدد الذين عرفوا باسم المهاجرين ، واذا ما اضيف الى كل ذلك بعض مما علق في النفوس من آثار بعض الاحداث التي جرت بعد الهجرة النبوية الى هذه المدينة ، لوجدنا في كل ذلك خلفية تساعدنا على فهم مسار الاحداث التي بدأت والرسول لم يوار التراب بعد .

فيشرب كانت في تاريخها السابق على الهجرة مجموعة من المنازل والاطام والمزارع واليساتين ، تقوم في واحة او ارض خصبة نسبيا ، تبلغ مساحتها ما يقارب العشرين ميلا مربعا ، وتحيط بها التلال والصخور والارض المحصنة التي لا تصلح للزراعة .

وكان القسم الاكبر من سكانها يعرفون باسم بني قيلة ، وهو تجمع قبلي كبير يضم قبيلتين هما الاوس والخزرج ، اللتين كان لكل منهما عدد من الفروع والبطون . وتذكر المصادر ان الاوس والخزرج من عرب الجنوب هاجروا الى يشرب وسكنوا بعضا من اراضيها غير المأهولة ، ودخلوا في خدمة القبيلة او القبائل التي تقطنها ، ثم ، ومع مرور الزمن ، وبسبب من كثرتهم وقوتهم ، استطاعوا ان يفتصبوا السيادة من سكانها الاصليين ، وان يغتدوا سادتها الجدد . وقد حدث ذلك ، على رأي اغلب الباحثين المحدثين ، في منتصف القرن السادس الميلادي ، او بعيد ذلك بقليل .

وكان من بين القبائل التي سبقت الاوس والخزرج في سكنى يشرب قبيلتان تدينان باليهودية هما : بنو قريظة وبنو النضير . وقد اقامت هاتان القبيلتان في الجزء الخصيب من ارض يشرب ، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدين . وضمت يشرب زمن الرسول قبيلة يهودية ثالثة هي قبيلة بني قينقاع ، وكانت اقل نفوذا من زميلتيها ، كما ضمت فئات عربية غير الاوس والخزرج ، ربما كانت بقايا السكان العرب الذين كانوا يقطنونها قبل وصول اليهود اليها .

وكان بين الاوس والخزرج نزاعات كثيرة وحروب طويلة ، كان اخرها يوم بعث الذي وقع قبل هجرة الرسول بأعوام قليلة ، والذي اقام نوعا من التوازن القلق بين القبيلتين ، لان الحرب كانت قد أجهدت كلا من الفريقين ورغبا في الخلاص منها .

وهكذا كانت يشرب تعيش ازمة مماثلة لازمة مكة ، سببها ان الفئة العربية من السكان كانت تشعر أن المثل العليا السائدة في المجتمع ، ولا سيما في الميدان الديني ، مثل لا تتناسب ومعطيات العقل المفكر الذي يزن الامور بموازين الحضارة ، لا البدوة الجاهلة . وقد ساعد على هذا الشعور بعدم جدوى أو قصور الديانة الوثنية عن متطلبات العقل ، وجود اليهود الموحدين الى جانبهم ، وما كان ينتج عن الاختلاط بهم والتقاش معهم من شكوك لا تنفع في الاجابة عليها نظريات الديانة الوثنية . ووجه اخر للازمة التي كانت تعيشها يشرب قبل هجرة الرسول اليها ، هو وجه اقتصادي ، سببه ازدياد مستمر في عدد السكان لا يجاريه ازدياد مماثل في مخزون الطعام ، وقد ترتب على المنازعات المسلحة التي كانت تجري بين سكان يشرب ان المنتصرين كانوا في كثير من الاحيان يحتلون ارض المغلوبين اذا كانت اكثر خصبا من ارضهم ، حتى يؤمنوا لانفسهم موردا للطعام افضل أو اقدر على سد احتياجاتهم . وحين كانت تنتهي الحروب بينهم دونما نتيجة حاسمة ، كما حدث يوم بعث مثلا ، كان على أصحاب الارض الخصبة ان يظلوا حذرين وعلى اهبة استعداد للدفاع عن اراضيهم اذا ما هاجبها مهاجم بقصد استخلاصها والافادة من خيراتها لقوت عياله . وقد ادى اتساع هذه المشاكل المتعلقة بالاراضي الخصبة وما كان يجري حولها من مخاصمات الى اهمال الناس العناية بأراضيهم ، فقل محصولها مع الزمن ، وازدادت الازمة التموينية حدة ، وغدت الارض المنتجة عرضة لشرعية الفزو ، التي هي في الاساس مظهر من مظاهر عدم الكفاية الغذائية في الصحراء ، هذه الشرعية التي ظلت سائدة في يشرب ، وتنطبق على الارض الزراعية لا على المنقول فحسب ، كما كانت الحال في المجتمعات البدوية . وطبيعي ان تنطبق هذه الشرعية ايضا على قطعان الماشية وأن يتعرض هذا الصنف من الثروة الخاصة الى خطر السلب ومحاولة الاستيلاء القسرية . وقد زاد هذا النوع من الاصطدامات من مشاكل يشرب ، لاسيما وأن صفر رقعته وتشابك مصالح الناس فيها سيؤديان حتما الى حال من المنازعات الدائمة .

وكانت النظم الاجتماعية في يشرب مشابهة تماما للنظم السائدة في المجتمعات الصحراوية . فكانت العصبية القبلية اساسا اوليا من أسس العلاقات بين افراد المجتمع ، وكان الثار والدبة شريعتين هامتين من شرائع العمران البشري عندهم . وقد ادى هذا التضامن القبلي الى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكاملها ، لا مسؤولية الفرد وحده . واذا كان مقبولا أن

تتولى القبيلة ، الككل ، في مجتمع صحراوي مهمة الدفاع عن ممتلكات فرد من افرادها اعتدى عليه ، فان هذا الواجب ليس بالسهولة نفسها في مجتمع مستقر وصغير الرقعة نسبيا كيثرب ، لان مجالات الاصطدام يومية ومتكررة ، لاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه آنفا من قلة في المخزون الغذائي أدت بالضرورة الى غزو دائم للممتلكات الفردية بقصد الحصول على ما عند الغير من موارد غذائية لا تتوافر عند الغازي . ومعروف ان المجتمعات المستقرة لا تحتاج الى عصبية قبلية لضبط شؤونها وجل ما تحتاجه هو رأس مدبر واحد يتولى مقاليد الحكم ويتصرف فيما يعرض بين الناس من مشاكل .

ولم تقم مشاكل مماثلة لهذه المشاكل في مكة وذلك لان العمل في التجارة هناك آمن للناس موردا للرزق جعلهم في غنى عن الاعتماد على منتوج الارض من الغذاء ، وبالتالي الفئ من المجتمع المكى المستقر شريعة الغزو الصحراوية . وقد أدت وحدة المصالح التجارية لقريش ككل الى وحدة قبلية لم تنعم بها القبيلتان الكبيرتان اللتان كانتا تسكنان يثرب ، فالتناقضات بين الجماعات المكونة للمجتمع اليثربي ، وعدم وجود عامل موحد يجمع شتات الناس ( كالتجارة في مكة مثلا ) أدت الى قيام ما تحدثنا عنه من صراع واصطدامات دائمة بين سكان هذه المدينة . يضاف الى ذلك ان الاسرة في المجتمع الزراعي هي الخلية الضرورية للانتاج ، في حين ان مجتمعا كمجتمع مكة ، يعمل افراده بالتجارة ، يحتاج بالضرورة الى التضامن القبلي . لهذا كله كان التضامن القبلي في مكة اوضح منه في يثرب . وايا كانت الاسباب ، فان المجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول اليه كان مجتمعا منقسما على نفسه ، تنقسمه الحزازات وتنخره امراض كثيرة أهمها فقدان الوحدة بين عناصره المختلفة . واذا كانت هذه الفرقة وعدم وحدة الصف هي التي مهدت الارض لحسن استقبال الرسول ، فان الخوف من تصدع الصف المكى وانقسام الناس الى شيعتين او فريقين دينيين كانا من أبرز العوامل التي دعت المكيين الى حربه واعلان العداء له . وفي هذه الفرقة في الصف التي كانت تعاني منها يثرب قبل الاسلام ، ووحدة الصف القرشي المنبئة على المصلحة المشتركة التي كانت سمة مجتمع مكة قبل الاسلام ، نجد الخلفية التاريخية لفرقة الصف بين جماعة الانصار في اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول ، وحين كان امر خلافته يقرر أو يحسم الى الابد ، ووحدة الصف القرشي في هذا الاجتماع ، التي انتهت باقرار مبدأ قرشية الخلافة .



وبهاجر الرسول الى المدينة على الوجه المعروف بعد بيعة العقبة ، فيجتمع فيها بعد وصوله اليها جماعتان كبيرتان من الناس : جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين . اما المسلمون فكانوا فئتين : الانصار ، او المسلمون من الاوس والخزرج ، والمهاجرون ، وهم المسلمون المكيون الذين هجروا مدينتهم وانتقلوا للسكن مع الرسول في المدينة المنورة . اما غير المسلمين ، فكانت غالبيتهم من اليهود ، وبينهم بعض المشركين من الاوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الاسلام ، وفئة المنافقين الذين كان ولاؤهم ظاهريا ، وله بعض الاهداف الكيدية .

وكان على الرسول الذي لم يكتب لدعوته النجاح في مدينته الام ، ان يواجه ظروفا ضعبة في دار هجرته . ويلخص فرانسيسكو غابرييلي هذه الصعوبات التي واجهت الرسول في مستهل هجرته بقوله : « لقد كان النصر الذي سعى اليه الرسول ، ومركزه كني صاحب سلطة دينية ورئيس دولة فتية انشأها هو ، نصرا بطيئا ومحفوفا بالمصاعب الكثيرة التي يثيرها ضده اعداء ظاهرون ومستترون . لقد كان المكيون اعداءه الظاهرين ، وكان عليه ان يواجه الاعيب سياسية ومؤامرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة » (١) . وفي هذا القول صحة وصدق ، اذ ان محمدا لم يكن في الايام الاولى من هجرته الى المدينة الرجل المطاع الاوحد الذي لا يتنازع سلطته منازع . واذا صحت هذه الصفة على الفترة المتأخرة من وجوده في هذه المدينة ، فانها لا تصح على ايامه الاولى منها . لقد كان الامر لا يملك السيادة الاعلى الجماعة التي آمنت به ، من مهاجرين وانصار . وكان عليه ان يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة الدينية بين اولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الاسلام كدين . وقد اثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة وانضمت اغلب الفئات التي لم تعتنق الاسلام الى هذا الدين في اقل من عام بعد بدء الهجرة . وطبعي اننا نقصد بهذه الفئات المنافقين الذين اعتنقوا الاسلام ظاهريا وحاربوه خربا مقنعة تبعا لمصالحهم ، كما نقصد بعض الاشخاص الذين تشبثوا بموقفهم المعادي واستمروا يعارضون الرسول ويرفضون الاسلام كافراد . واشهر مثال على هذا النوع الاخير من المعارضين سيد من اشراف الاوس هو ابو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان ، الذي كان قد تراهب في الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ويمثل ابو عامر فئة مدنية اشد تطرفا في عدائها للاسلام من فئة عبد الله بن ابي زعيم المنافقين . فعبد الله بن ابي لم يجرؤ على معاداة الاسلام جهارا ، بل تستر باسلام ظاهري . وكاد للاسلام تحت ستار من ايمان زائف . وقد يجد المرء له عذرا في ذلك لان الاسلام وقود محمد الى المدينة حرمه من ملك كان يعد نفسه له ، فلما رأى قومه « قد ابوا الا الاسلام ، دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن » (٢) اما ابو عامر فقد اندفع في عداء الاسلام من موقف عقائدي

على حد زعمه ، ودخل مع الرسول في نقاش طويل حول الاسلام الذي يبشر به الرسول وصلته بالحنيفية ، دين ابراهيم ، الذي يزعم انه يدين به ، وان الرسول « شوهه » وابعده عن « نقائه الاول » . وقد وصل عداؤه للدين الجديد الى حد القيام بهجرة معاكسة ، فكما ان الرسول ترك مكة وهاجر الى المدينة ناجيا بدين الله ، هاجر هو من المدينة موطنه الاصلي الى مكة ، حيث لا سلطان لمحمد . وحين فتح الله مكة على يد الرسول الكريم تركها الى الطائف ، فلما أسلم أهلها لحق بالشام حيث مات طريدا غريبا وحيدا (٣) . ولم يكن أبو عامر وحده في هذا الموقف ، فقد هاجر معه من المدينة الى مكة بضعة عشر رجلا مفارقين للاسلام ورسوله ، كما هاجر معه الى الشام عدد منهم بعد نصر الاسلام الكامل على الجزيرة العربية .

والى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول بمعارضتها ودسائسها حين قدم الى المدينة ، وظهر بعض من آثارها في اجتماع السقيفة بعد وفاته ، كانت الجماعات اليهودية التي أدركت أن قدوم الرسول الى يثرب هو فاتحة عهد جديد ، لن تكون لهم فيه الكلمة الاولى ولا المكان القيادي ، فعملوا ما وسعهم العمل للتخلص منه والابداء بحياته . ولكن نصر الله لرسوله كان لكيدهم بالمرصاد .

ولستنا نريد ان ندخل في مزيد من تفاصيل المعارضة التي لقيها الرسول في يثرب قبل توطد نفوذه فيها ، أو الاسهاب في ذكر العناصر التي ناصبته العداء وأسبابها في ذلك ، لان هذا يخرج عن الاطار المقرر لبحثنا ولا يندرج تحت عنوانه ، الا بقدر ما كان لهذه المعارضة الاولى من صلة نسب مع التيارات التي عبرت عن ذواتها حين طرحت مسألة الحكم بعد موته ، والتطور الذي دخل على هذه المعارضة الاولى بعد ان قامت ظروف جديدة ثبتت حقيقة اساسية ، تتلخص في انه لا جدوى من معارضة بعد اليوم لا تقوم على اساس من الدين الجديد ، وان كل تمايز وتفاضل ودعوى في الاحقية يجب ان تجد سنداً ومبرراً لا يخرج عن الاطار الاسلامي ، الذي ثبت وجوده بقوة الاقناع حيناً ، والسيف أحياناً . ورغم أهمية المعارضة التي واجهها الرسول من بعض العناصر السكانية في يثرب ابان وصوله اليها ، فقد ظلت المشكلة الاهم والاكثر إلحاحاً مشكلة اقتصادية نبتت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا اموالهم في مكة وغادروها مملقين لا أمل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون . واضطر النبي في سبيل حل هذه المعضلة أن يعمل بنظام المؤاخاة الذي هدف ، الى جانب حل المشكلة الاقتصادية ، الى تحسين الرابطة بين المهاجرين والانصار ، وتوكيد وحدة المجتمع الاسلامي في المدينة ، بشقيه : الانصار والمهاجرين . حتى ان نظام المؤاخاة ، على ما تذكر المصادر ، نص على حق التوراث بين المتأخين دون الارحام (٤) . وعلى الرغم من ان العمل بهذا النظام قد اوقف بعد غنائم بدر ، وما أفاء الله على المسلمين من غنائم واموال سدت غوز المحتاجين ،

فانه يبدو واضحا ان الهدف الآخر ، وهو هدف تحسين الصلة بين شقي الجماعة الإسلامية ، ظل دون المستوى الذي كان يريده له صاحب الرسالة وسيد الجماعة ، وأطل برأسه واضحا قويا حين انتقل الى جوار ربه .

واذا تجاوزنا ما لقيه الرسول من معارضة بعض الفئات في المدينة ، والمصاعب الاقتصادية التي عاشها بعض من صحابته ، لوجدنا أنه بعد أن وطد الأمور وذلل هذه الصعاب ، كانت تنتظره مهمة أصعب ، وهي وضع الأسس التي لابد منها لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر السكانية التي لا تجمعها وحدة عصبية أو وحدة عقائدية ، أو حتى وحدة المصلحة . وقد عالج الرسول الكريم هذا الوضع في الكتاب الذي كتبه وحدد فيه صورة العلاقات في المجتمع العربي الجديد بفئاته المختلفة ، وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات . ورغم أنه لا يدخل في نطاق هذا البحث دراسة كتاب الرسول ، الذي حفظ لنا ابن هشام نصه كما أورده ابن اسحق في سيرته ، إلا أن المهم أن نلاحظ أن هذه الوثيقة التنظيمية الأولى التي أصدرها الرسول ، لا بوصفه نبيا مرسلا فحسب ، بل كرئيس لدولة يتباين أفرادها في الانتماء القبلي والعرفي والعائدي ، أحلت في المحل الأول من اهتمامها وركزت تركيزا شديدا على فكرة الولاء للدولة ، بقطع النظر عن الأصول العرقية والعقائدية للأفراد والمجموعات التي تعيش في كنفها ، وأن رئيس الدولة هو المرجع الأعلى والحكم الذي لا يخالف في كل ما يعرض من خلافات أو أمور بين أفرادها في الداخل ، وبينها وبين القوى التي تناصبها العداء في الخارج . كما توضح الوثيقة فيما توضح أن مسؤولية المواطن مسؤولية لا تتجزأ ، وأن الولاء للدولة أولا وقبل كل شيء ، وبقطع النظر عن المعتقد الديني . ومن هنا فإن المدينة إذا ما تعرضت لخطر خارجي فإن مسؤولية الدفاع عنها لا تقع على عاتق العنصر العربي ، مسلمهم وغير مسلمهم ، ولا على عاتق المسلمين منهم ، أنصارا كانوا أم مهاجرين ، فحسب ، بل تقع أيضا على عاتق سكانها اليهود ، غير العرب وغير المسلمين (5) .

وهكذا فقد كان أول دستور مكتوب لدولة إسلامية يحرص أشد الحرص على :

- ١ - سيادة الدولة على جميع مواطنيها وضمأن ولائهم التام لها .
  - ٢ - المسؤولية الجماعية لكافة العناصر السكانية للدولة عن أمن الدولة في الداخل والخارج بقطع النظر عن أصولها العرقية أو معتقدها .
  - ٣ - سلطة رئيس الدولة التي لا تنازع ، واعتباره صاحب الحق الوحيد في القرار .
- وإذا كان المقصود من كل ما سبق أن نذكر بالخلفيات ومواصفات الأسس التي



قامت عليها الدولة الاسلامية زمن الرسول ، فان الحديث عن مشكلة الحكم بعد وفاته يقتضي منا ان نطوي صفحة السنوات العشر التي كان الرسول فيها رأس هذه الدولة ، وان نبدأ مع اليوم الذي سجي فيه صلوات الله ميتا في بيت عائشة ، فطرح السؤال الكبير : من بعد محمد ..؟

لم يكن موت محمد موت انسان عادي ، بل كان موت نبي وزعيم ، وقائد ومشروع . او قل من كان يجمع في شخصه رسالة السماء ومسؤولية الحكم في الارض . واذا كانت رسالة السماء لا تورث ، وانتهت كما أعلن الرسول نفسه في حجة الوداع ، فان مسؤولية الحكم في الارض امر مفروض ، بل لا بد منه ، اذا اريد لهذه الرسالة ان تستمر ولتعاليمها ان تكون اطارا وهاذيا للحياة الناس . واذا اضيف الى هذا ان ما كان بين ايدي الناس من نصوص وأوامر لا تحدد ، بشكل قاطع وصريح ، الطريق الذي يجب ان يسلك لحل هذه المعضلة ، فان الأمر يندو أشد تعقيدا ويترك المجال واسعا للتأول والرأي والاجتهاد . فما عدا العموميات التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف ( وأمرهم شورى بينهم ... وشاورهم في الامر ... ان أفضلكم عند الله اتفاقكم .. الى غير ذلك من عموميات مشابهة ) ، لم يكن هناك نص صريح يحسم هذا الامر . ولم تكن العودة الى الماضي والاهتداء بتقاليد ميمكة ، لان القبائل العربية انذاك كانت تعيش مرحلة جديدة من حياتها ، غدت فيها نواة الجماعة الاسلامية ، فلم يكن باستطاعتهم ان يعودوا الى تقاليدهم القبلية واعرافهم الموروثة ليجدوا فيها الجواب على ما هم فيه من أزمة اختيار الخلف للقائد الراحل ، وليس بين مؤسساتهم القبلية القديمة ، والمؤسسات التي أرساها الاسلام وجعلها دستوراً ومثلاً في الحياة والعمل ، من قواسم مشتركة يمكن اعتبارها الناظم والمخرج من الحال التي واجهتهم بعد خلو مقعد الرئاسة ممن شغله رسولا نبيا ، وراعي امة في شؤون الدنيا والمعاش . فمحمد ليس بشيخ قبيلة تتبع في انتخاب خلفه القواعد التي كانت تتبع في انتخاب خليفة الشيخ القبلي المتوفى . كما أنه خلال الفترة القصيرة التي كان فيها طريق الفراش لم يوضح او يشر الى الاسلوب او الطريقة او الشخص الذي يجب ان توسد اليه الامور بعده . لهذا كله فتح الباب عريضا للاجتهاد والرأي ، وانتكأت جراح كانت مكمنة منذ حياته ، ونستطيع من خلال دراسة تحليلية معمقة لما دار في اجتماع السقيفة ان نفصح او نكشف الستر عن التيارات التي كانت تعمل في جسد الجماعة الاسلامية آنذاك ، والتي تشكل البواكير الاولى للتيارات السياسية الدينية التي تكون الاطار العريض لما سمي فيما بعد بالفرق والاحزاب السياسية في الاسلام . على انه لا بد لنا ، قبل الخوض في موضوع اجتماع السقيفة ، من ان نقف وقفة قصيرة عند موضوع الكتاب الذي قيل ان رسول الله أراد ان يكتبه لامته في مرضه الذي مات فيه ، لنؤكد

الحقيقية التي اشرنا اليها من ان الرسول انتقل الى جوار ربه دون ان يترك اي مؤشر للطريق التي يريد لصحبه ان يتبعوها بعده ، ولتؤكد بالتالي الحقيقة التي كان يؤكد عليها صلوات الله عليه في حياته حيال امور الدنيا ، والتي يلخصها قوله الذي كان يردده على الدوام وكلما عرض له امر من أمور الدنيا « أنتم اعلم بأمر دنياكم » .

يذكر ابن سعد نقلا عن ابن عباس الخبر التالي « اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخميس ... واشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه ، فقال : ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا ، قال : فقال بعض من كان عنده ، ان نبي الله ليهجر ! قال فقيل له : الا نأتيك بما طلبت ؟ قال : او بعد ماذا ؟ قال : فلم يدع به » . والى جانب هذه الصيغة للخبر هناك عند ابن سعد صيغ أخرى له معزوة لابن عباس نفسه جاء في أحدها قوله بعد سرده لخبر مرض الرسول يوم الخميس وطلبه للدواة والصحيفة : « فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع ، فقالوا ما شأنه ، أهجرك ؟ استفهموه ! فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه ، وأوصى بثلاث ، قال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم ، وسكت عن الثالثة ، فلا أدري قالها فنسيتها ، أم سكت عنها عمدا » وهذه الصيغة الثانية للخبر المنقولة عن ابن عباس أيضا ، فيها ذكر لوصية أوصاها الرسول تتألف من ثلاثة بنود : بندان لا علاقة لهما بموضوع مستقبل الأمة من بعده ، وبند لم يذكره اما عمدا او لانه نسيه . ولا نظن ان بندامثل هذه الأهمية ينسى ، ويبقى في الذاكرة البندان الاولان اللذان لايدانيانه في الأهمية . وحول الموضوع نفسه يذكر ابن سعد روايات عدة ، عن ابن عباس وغيره ، تجمع كلها على ان عمر بن الخطاب كان بين الحضور ، وان عمر هو الذي حال بين الرسول وبين أن يكتب الكتاب الموعود ، وذلك بحجة ان الرسول الكريم قد غلبه الوجد ، وان القرآن الكريم هو دليل الناس الذي لن يضلوا بعده . وفي هذه الروايات ما يجعل الباحث يتساءل عن مدى ما فيها من صدق ، وعن مصلحة عمر في ان يمنع الرسول من أن يدل الناس على الطريق التي عليهم ان يسلكوها بعده ، هذا الى جانب ما فيها من اختلاف في التفاصيل وأسماء الرواة الذين نقلت عنهم ، والأسباب التي دعت الرسول الى العدول عما عزم عليه ، وكلها أمور تجعل الباحث حائرا غير قادر على الجزم بصدقها أو زيفها ، ولا سيما اذا تذكرنا ما تؤكد المصادر عن اخبار الصدمة التي أصيب بها عمر حين سمع بخبر وفاة الرسول ورفضه ان يصدق ذلك ، وما في هذا الموقف من تناقض مع ما يرد في هذه الروايات من ان عمر تذرع في منع الناس من تمكين الرسول من كتابة الكتاب الذي اعتزم ان يكتبه ، بأن الرسول يعاني سكرات الموت وأنه « ليهجر » . ومن يتذرع بأن الرسول « يهجر » يدرك أنه لن يمتد به العمر طويلا ، ولا يفجأ موته حتى يذهل ويفقد وعيه .

لهذا كله فنحن اميل الى الاعتقاد بأن هذا الخبر يفتقر الى الدقة والموضوعية ، وفيه من التناقض مع المسار الذي اتخذته الاحداث فيما بعد ما يجعلنا اقرب الى رفضه .



بعد هذه الملاحظة المعارضة التي قدمناها حول موضوع الكتاب المزعوم ، والتي اردنا من خلالها تأكيد الحقيقة التي اشرنا اليها اكثر من مرة من ان الجماعة المسلمة في المدينة التي لم يفاجئها موت الرسول ، كما يزعم البعض ، كان فيها من يخطط ويدبر لمثل هذه الساعة ، اذ ما كاد خبر وفاة الرسول يتسرب الى الناس حتى هرع زعماء جماعة الانصار وبخاصة الخزرج منهم ، الى زعيم هذه القبيلة ، سعد بن عباد ، ليختاروا من بينهم من يخلف الرسول في قيادة الامة ، ويعرف هذا الاجتماع في جميع المصادر التاريخية باسم «خبر سقيفة بني ساعدة» او «حديث السقيفة» او ماشابه . ويبدو ان اخذ الانصار ولاسيما الخروج ، لزمام المبادرة في هذا الموضوع نابع من خشيتهم الا يكون لهم في الفترة الجديدة ما كان لهم من مكانة زمن الرسول ، وان يحرموا من الدور الهام الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة للدولة من قبل . وطبيعي الا يظل اجتماع كهذا سرا ، وان تنتهائى اخباره الى باقي سكان المدينة من اوس ومهاجرين وغيرهم . وكان من خبر هذا الاجتماع ، على ما يذكره الطبري نقلا عن الزهري عن ابن عباس ، انه حين توفى الله نبيه تخلف علي بن ابي طالب والزبير وغيرهما في بيت فاطمة ، ولم يحضر الى بيت فاطمة اي من الانصار ، وجاء رجل يسعى فقال « هاتيك الانصار اجتمعت في ظلة بني ساعدة يبايعون رجلا منهم » (٩) . وهرع عمر بن الخطاب بعد ان اتاه الخبر الى منزل النبي حيث كان ابو بكر وطلب منه الخروج اليه ، واعلمه ان الانصار اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون تولية الامر لسعد بن عباد ، وان بعضهم يقول : منا امير ومن قريش امير (١٠) . ومضى ابو بكر مع عمر الى حيث يجتمع الانصار ، وفي الطريق لقي ابا عبيد بن الجراح ، فتماشوا اليهم ثلاثة ودخلوا مكان الاجتماع ، ووجدوا القوم قد قر رأهم على تولية سعد خليفة لرسول الله . ويستطيع الباحث من مجموع الروايات التي يجدها عند الطبري (١١) حول موضوع النقاش الذي جرى بين ممثلي المهاجرين وبين الانصار في هذا الاجتماع ان يصل الى الصورة التالية :

١ - لا يعقل ان يكون اسراع الانصار ( والخزرج بصورة خاصة ) الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة فور وفاة الرسول حادثا عفويا ، ولا بد انهم كانوا يخططون لاستلام الامر بعد الرسول منذ ان اشتكى من المرض الذي توفي فيه ، او قبيل ذلك ، بدليل انهم بمجرد وصول الخبر بوفاة سارعوا لعقد اجتماع السقيفة وترشيح

سعد بن عباد لزعامة الجماعة المسلمة رغم ما كان يشكوه هذا الاخير من مرض لا يساعده على الحديث بصوت مرتفع (١٢) ، الامر الذي جعله يتكلم بصوت منخفض ويقوم ابنه أو بعض بني عمه بنقل كلامه الى الحضور . وتدبير أمر اجتماع كهذا والاتفاق على مرشح لا يمكن أن يتم في فترة قصيرة ، كالفترة التي مرت بين اعلان وفاة الرسول ووصول الخبر الى عمر ، وابلاغه ذلك الى أبي بكر الذي كان في بيت الرسول يساعد في جهازه واعداده للدفن (١٣) . وكل ذلك يعود بنا الى ذكريات سابقة بدأت تظهر فيها بوادر تكتل أنصاري منذ حياة الرسول ، وتقصد بذلك ما جرى بعد فتح مكة وغزوة حنين وإيثار الرسول الكريم بعض حديثي العهد بالاسلام من قريش ( المؤلفه قلوبهم ) وغيرها بهدايا اضافية (١٤) ، جعلت الانصار يشكون في امكان انصراف الرسول عنهم والتحول الى مكة بعد أن فتحها الله عليه . وكان سعد ابن عباد على رأس هذه الجماعة الانصارية التي أخذت على الرسول إيثاره قومه . ويذكر الطبري هذا الحادث في جملة ما يذكر من اخبار غزوة حنين ويقول : « لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الانصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الانصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ( أي الكلام السيء ) ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ! . فدخل عليه سعد بن عباد فقال : يا رسول الله ، أن هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الانصار شيء ، قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ! قال : يا رسول الله ما أنا الا من قومي » (١٥) ، وطلب الرسول من سعد أن يجمع له قومه من الانصار وتحدث الرسول اليهم وأوضح لهم الدافع الذي حدا به لإيثار بعض المسلمين الجدد بهدايا اضافية ، وأعلن لهم تمسكه بهم وبصحبته وأنه سيسير وإياهم في درب واحد ، فاطمأنت نفوسهم وهذات خواطرهم . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن سعدا كان يقود الجماعة الانصارية المعارضة ، وأنه يصرح بعصبيته لقومه من الانصار ( لا للجماعة الاسلامية ككل ) فيقول : « ما أنا الا من قومي » . وفي كل ذلك ما يمكن أن يؤخذ كدليل على بوادر قيام تكتل أنصاري منذ حياة الرسول الكريم ، لاسيما بعد أن تغلب الاسلام على الصعاب والاطوار التي كانت تهدد وجوده ، وغدا قوة لا يخشى معها عليه من تصدع خطير في الصف الداخلي .

٢ - أدرك المجتمعون من الانصار أن تحركهم غير مضمون النتائج ، وإن نقاشا جرى بينهم قبل وصول ممثلي المهاجرين ، يلخصه لنا الطبري على النحو التالي :

« ثم انهم ( أي الانصار المجتمعون في السقيفة ) ترادوا الكلام بينهم ، فقالوا فان أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن

عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الامر بعده . . ؟ فقالت طائفة منهم : فانا نقول اذن : منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا ابدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : هذا أول الوهن « (١٦) » .

كما جاء في موضع آخر على لسان الرجل الذي جاء يخبر عمر باجتماع السقيفة قوله : « هاتيك الانصار قد اجتمعوا في ظلة بني ساعدة ، يبائعون رجلا منهم ، يقولون منا أمير ومن قريش أمير » (١٧) .

ويبدو ان اتجاهها قويا ظهر بين المجتمعين من الانصار حول فكرة اقتسام السلطة مع المهاجرين ، وان يقوم نظام تكون فيه السلطة ثنائية تمثل فيها الفئتان ، دون ان يكون عند المجتمعين صورة واضحة للتطبيق العملي لهذا النوع من النظام ، الذي لو ان المجتمعين أخذوا به لكان البداية المبكرة لانقسام الجماعة الاسلامية ، وقد رفض الوفد المهاجر هذا العرض بحزم وقال عمر « هيهات ، لا يجمع اثنان في قرن » (١٨)

٣ - لم يكن الصف الانصاري موحدا في محاولته الاستيلاء على السلطة في الجماعة الاسلامية . ويبدو هذا التشتت في صف الانصار من الموقف الذي اتخذه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير الانصاري ، الذي رفض ان يوافق على موقف جماعته وكانت وجهة نظره التي شرحها في اجتماع السقيفة وبحضور أبي بكر وصحبه تلخص بقوله « ألا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الامر ابدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » (١٩) . ولم يكن بهذا القول : بل أتبعه بالعمل وقام وسبق ابا عبيدة وعمر في مبايعة أبي بكر . وبشير بن سعد من الخزرج (٢٠) ، أي من قبيلة سعد بن عبادة نفسها ، وكان من الذين شهدوا العقبة مع السبعين من الانصار ، وشهد بدرا وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، كما كان على رأس سرية بعثها رسول الله الى بني مرة بفدك في شعبان سنة سبع ، وقاتل مع خالد بن الوليد في عين التمر واستشهد في ساحة المعركة زمن خلافة أبي بكر . فهو اذن من كبار رجالات الانصار ، ومن ذوي الجهاد والمكانة في قومه ، ومن القلة التي كانت تكتب بالعربية في الجاهلية ، وكل هذا يضيف على رايه أهمية واعتبارا بين المجتمعين . وإلى جانب هذا التصدع في الصف الخزرجي ، لا بد من الإشارة الى موقف الاوس ، اذ يذكر الطبري انه « لما رأت الاوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير ، وكان أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا ابدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فقاموا اليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادۃ وعلى الخزرج ما كانوا اجمعوا له من امرهم « (٢١) . وفي موقف الاوس هذا شيء كثير من ذكريات الماضي الذي سبق هجرة الرسول الى يثرب ، حين كانت الحروب والايام لا تنقطع بين اوس وخزرج ، والذي وضعت له هذه الهجرة وما تبعها من اسلامهم خاتمة سعيدة محت ما نشأ بينهم من احن ودماء ، ولكن الى حين . وهذا يجعلنا نقول انه كان هناك شعور عند الانصار يدعوه الى التكتل في وجه المهاجرين ، ولكن هذا الشعور لم يصل الى حد صهر الجماعة الانسانية ، بفرعيها ، في بوتقة واحدة تمحي فيها جميع روااسب الماضي . كما انه لم يأخذ شكلا منظما له اساليبه وطرائقه في العمل والتخطيط ، لمواجهة ما قد يطرحه المهاجرون من مطالب في الحكم ، لذا انهار هذا التكتل بسرعة ولم يستطع ان يحقق اهدافه واهمها تسلم السلطة .

٤ - كان الاسلوب الذي اتبعه الجانب المهاجر في حسم المشكلة يعتمد اولا على حجة يصعب دحضها ، وتتلخص كما وضعها عمر بن الخطاب « والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم وولي امورهم منهم ، ولنا بذلك على من ابى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن اولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل او متجانب لاثم ، ومتورط في هلكة » (٢٢) . وفي هذه الحجة ما يشير الى ان الامر لا يقتصر على من بالمدينة من العرب ، بل لابد من النظر بعين الاعتبار الى ماسيكون عليه موقف باقي المسلمين من غير عرب المدينة الذين يفضلون قريشا عشيرة الرسول على سواها . وكان هذا الاسلوب يعتمد ثانيا على ان المهاجرين لن ينفردوا بالامر وانهم لن ينسوا للانصار فضلهم وجهادهم ، وان الامور لن تقضي بدونهم . وقد تولى هذا الجانب من الحديث ابو بكر بوقاره وجلال قدره ، فقال في اجتماع السقيفة « فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا احد بمنزلتكم ، فنحن الامراء وانتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا تقضي دونكم الامور » (٢٣) . ورغم ان كلمة وزير لم تكن لتعني منصبا اداريا محددًا ، كما ستكون الحال في العصر العباسي ، الا انها كانت تعني المركز الاستشاري الذي لا تقضي الامور بمعزل عن صاحبه . وقد تعارف المؤرخون على تسمية عمر بوزير ابي بكر ، وعلي بوزير عمر ... وهكذا . وفي هذا الوعد تهدئة للخواطر واعتراف بالفضل وتأكيد على ان الامور لن تقضي بمعزل عن الانصار وسار النقاش على هذه الشاكلة في جو عاصف ، فيه الحاج من الجانب الانصاري على ابراز حقهم ، وفيه محاولة من جانب المهاجرين على التأكيد ان الامر لن يستقيم الا لقريش ، لما لها من فضل وسابقة من جهة ، ولكونها عشيرة الرسول من جهة أخرى ، ولما كان لها من مكانة بين العرب قبل الاسلام (٢٤) .

ولم تسو المشكلة بسهولة ، فقد بلغ الغضب بالحباب بن المنذر خطيب الخزرج حدا جعله يقول لصحبه من الانصار المجتمعين في السقيفة : « لا تسمعوا مقالة هذا ( يعني عمر بن الخطاب ) واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر . فان ابوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد » (٢٥) . ولما طلب من سعد بن عباد ان يبايع بعد ان بايع الناس وبايع قومه ، اجاب : « اما والله حتى ارميكم بما في كنانتي من نعلي ، واخضب سنان رمحي ، واضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، واقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل ، وأيم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي ، وأعلم ما حسابي » (٢٦) وظل سعد مصرا على هذا الموقف ، وخرج ولم يبايع فسار الى الشام فقتل هناك سنة خمس عشرة (٢٧) . وحسم عمر بن الخطاب النقاش في السقيفة بان تقدم هو وابو عبيدة من ابي بكر وقالا له : « انك افضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الفار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة افضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له ان يتقدمك او يتولى هذا الامر عليك ، اسط يدك نبايعك » (٢٨) وسبقهما اليه بشير بن سعد الانصاري فبايعه ، وقام اليه مبايعا من كان حاضرا من الاوس وأقبل الناس من كل جانب يبايعون ابا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عباد المريض . وكان رأي عمر ان يجبر سعدا على البيعة ، ولكن بشير بن سعد نصحهم ان يتركوه ، وقال « انه ليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم ، انما هو رجل واحد » (٢٩) . فقبلوا مشورة بشير بن سعد وتركوه . ويبدو ان سعدا استمر في عناده فكان لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بافاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله » (٣٠) .

هـ - اذا اضفنا الى كل ذلك ان امر خلافة الرسول قد شغل الجماعة الاسلامية ثلاثة أيام بلياليها ، كان الرسول فيها مسجى على فراشه ينتظر الدفن وحر المدينة اللاهب في شهر حزيران (٣١) يؤذي جسده الطاهر ويشوه معاله ، وهم غافلون عن كل ذلك يتخاصمون ويتصايحون ويطرحون الحل والحل البديل حتى آل الامر الى ابي بكر بعد مخاض عسير ، لوجدنا ان الامر كان من الخطورة بالنسبة لهم بحيث استحق تأجيل كل شيء للبت فيه ، وان التيارات المتصارعة كانت من العنف والشدة بحيث لم يحسم النقاش الا بعد جهد طويل لم يخل من عصبية بالغة ، وتعتت وصل الى حد اعتزال الجماعة كما فعل سعد بن عباد .

ان هذا الذي جرى في سقيفة بني ساعدة يفصح بشكل لا يقبل الجدل عن وجود تيارين اساسيين كانا يشكلان بذرة الفرقة التي تمت فيما بعد داخل الجماعة الاسلامية . وهذان التياران هما : آ - التيار الانصاري ، ب - وتيار المهاجرين :

واذا اخذنا بعين الاعتبار ان سعد بن عبادة من الخزرج ، وان النصر يوم بعث ( قبل الاسلام ) كان للاوس ، وان ذكريات هذا النصر وما حلم به الاوس من سيادة على يشرب قبل قدوم محمد اليها ، لوجدنا ان هذه الذكريات كانت من اهم العوامل التي حددت المواقف الانصارية المتصارعة والمنقسمة التي ظهرت في اجتماع السقيفة .

وما قلناه عن التصدع في الصف الانصاري في هذه الفترة يصح أيضا على صف المهاجرين ، الذي بدا متماسكا في السقيفة من خلال طرحه مبدا قرشية الخلافة . ولكنه ما لبث بعد ان آل الامر الى واحد من رجالاته ان ظهر فيه اكثر من تيار ، ولاسيما التيار الذي يحذ ان يكون الامر في آل البيت ( وهم قرشيون ايضا ) والتيار الآخر الذي يراه في عامة الصحابة الاول من القرشيين كما تمثل في شوري عمر .

وهكذا ظهر هذان التياران بوضوح وجلاء منذ اللحظات الاولى لبروز مشكلة الحكم . على ان الامر لم يقتصر على ذلك ، اذ ما كاد ابو بكر يبايع « البيعة العامة » بعد « البيعة الخاصة » حتى ظهرت على السطح تيارات اخرى كانت بذورها تطل برأسها منذ حياة الرسول ، واهمها التيار البدوي الذي كان يمثل قبائل الجزيرة خارج الحجاز ، والذي انفجر يهدر كالسيل العارم بعد وفاته ، ومنذ الايام الاولى لتولي ابي بكر مقاليد الامور . ومعروف انه في العامين التاسع والعاشر للهجرة وحين كانت وفود الجزيرة العربية تقدم على الرسول مبايعة ومعلنة اسلامها ، كان بينها من لا يقنعه الاستسلام لسلطان قريش متمثلا في شخص محمد . ولعل فيما تذكره المصادر عن النقاش الذي دار بين مسيلمة بن حبيب الحنفي ، او مسيلمة بن ثمامة ، الذي عرف فيما بعد باسم مسيلمة الكذاب ، الذي جاء في وفد حنيفة (٣٣) ، ومحاولته مقاسمة محمد الامر وارتداده عن الاسلام بعد عودته من المدينة وقبل وفاة الرسول ، ما يفصح عن وجود بذور هذا الاتجاه البدوي ، الذي لا يقبل سلطانا غير سلطان سيد القبيلة ، ولا يعترف بشريعة سوى اعرافه وتقاليده ، ولو كانت الشريعة شريعة منزلة من السماء . وقد توضح هذا التيار البدوي ، كما اسلفنا ، بعد وفاة الرسول ، فكانت حركة الردة التي اعتبرها العديد من المؤرخين المحدثين ، خطأ ، ردة دينية ، بمعنى انها كانت ثورة على الدين الاسلامي الذي فرضه محمد عليهم بقوة السيف . ويقولون ان العرب بعد وفاة الرسول ما لبثت ان ارتدت حتى لم يبق أحد متمسك بدينه ، الا قريشا بمكة وثقيفا بالطائف ، وآخرين قليلين جدا (٣٤) .

ويقسم هؤلاء المؤرخون المرتدين الى قسمين :

- ١ - التاركون الدين نهائيا القاطعون لكل صلة لهم به ، وهم بنو طيء واسد ومن اتبعهم من غطفان ، الذين اتبعوا طلحة بن خويلد الاسدي ، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة ، وأهل اليمن الذين اتبعوا الاسود العنسي .



٢ - الذين اکتفوا فقط برفض دفع الزكاة ، ومن هؤلاء قسم من بني تمیم ویراسهم مالک بن نويرة ، وبنو هوازن وغيرهم .

هذا التقسيم وما يفترضه من وجود فئة من المرتدين اکتفت فقط بعدم دفع الزكاة يمكن ان يؤخذ كدليل على ان الردة لم تكن ردة دينية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل كانت في الاعم الاغلب ردة سياسية تهدف الى الثورة على قرشية الخلافة ، وفكرة السلطة المركزية في الحكم ، وما جرت هذه المركزية من اعباء وواجبات على القبائل ، كدفع الزكاة مثلا ، لم تكن قد اعتادت عليها من قبل . والردة ايضا مظهر من مظاهر استقلالية القبيلة وعدم قبولها لفكرة الحكم من الخارج ، ولو كان الحاكم قبيلة صديقة او شخصا من قبيلة صديقة . لقد كان خضوعهم في الماضي لشخص الرسول الذي يتمتع بصفات لا تتوافر في شخص غيره ، فهو مبعوث الله جاء ليصدق بأمره . اما ابو بكر فلا تتوافر فيه هذه الصفات ، ولذلك فليس لاحد غير الرسول ان يطالبهم بتلك الطاعة . وتتمثل هذه الفكرة في الثورة على الحكم من خارج القبيلة او فكرة الدولة ، في قول الشاعر الخطيل بن اوس اخي الحطيئة .

اطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيا لعباد الله ما لابي بكر
ايورها بكرا اذا مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر (٣٥)

فالردة اذن حركة سياسية موجهة ضد الخضوع للسلطة المركزية في المدينة ، وفي حديث بين عمر بن الخطاب وابي بكر الصديق يقول : « يا ابا بكر كيف تقايل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله » قال ابو بكر : « والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتهم على منعها » . ويوضح هذا الحوار ان عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يرى في رفض القبائل دفع الزكاة ردة دينية بل حركة سياسية . كما ان فيه اعترافا صريحا من عمر بان المرتدين كانوا مقيمين على اسلامهم وان حركتهم اكانت ذات اهداف سياسية . وهنا لا بد لنا ان نلاحظ ان الزكاة ايام الرسول كانت تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين من كافة الديار . وقد يكون نقل زكاة القبائل الى المدينة وصرفها على الوجه الذي يراه من يحكم في المدينة بعد الرسول من الاسباب التي دفعت القبائل الى رفض دفع الزكاة الى ابي بكر ، لان القبائل رأت في هذا عبئا ثقيلا عليها لا ترى

له مبررا . ولهذا نرى ان الدولة بعد الردة لجأت الى تدبير جديد يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين ، في هذه الاطراف ، ويرسل الفائض بعد هذا الى بيت مال العاصمة . وهذا التدبير ارضى القبائل لآمد وهذا من ثورتهم .

وبعد ان اخمد ابو بكر ثورات المرتدين على النحو المعروف ، وجاء عمر فوجه قبائل الردة للمشاركة في عمليات الفتح ، هذا التيار البدوي مؤقتا ، ولكنه ما لبث ان عاد ليطل برأسه وبحدة كبيرة خلال الصراع الذي عاشته الدولة بعد فتنة عثمان ، بين علي ومعاوية ، وتمثل في شكله الجديد بحركة الخوارج التي رفضت مبدأ قرشية الخلافة ، وجعلتها مشاعا بين من يصلح لها من عامة المسلمين .

واذا كان ما قلناه حتى الان يفصح عن وجود ثلاث تيارات كبرى في الجماعة الاسلامية حين طرحت مشكلة الحكم لأول مرة بعد وفاة الرسول ، فان في هذه التيارات تكمن مؤشرات لم تكن واضحة انذاك ، ولكنها تنبئ الباحث عن المسار الذي ستتخذه الاحداث فيما بعد .

فالتيار الذي مثله الانصار في اجتماع السقيفة والحجج التي برروا بها احقيتهم بالخلافة ، هو الاصل والمنطلق الحقيقي لحركة الزهد التي مثلتها فئة القراء ، التي اعتزلت السياسة بعد ان يئست من ان يكون لها فيها نصيب ، واقتنعت بزعامة مدرسة الحديث التي نمت وترعرعت في المدينة ، واوجدت بذلك لنفسها وصاية دينية اعتبرت ارفع مقاما من الممارسة السياسية ، ونفست عن حقد هذا فيما بعد كلما اتيح لها ذلك وعبرت عنه بالقول والفعل (٣٦) . كما يمكن ايضا ان نرجع اصول حركة الارزاء الى هذا التيار ، لانه في الارزاء ، الى جانب ما فيه من جانب عقائدي ، يعود تام عن المشاركة في العمل السياسي .

اما التيار القرشي والذي ضم بين جناحيه عامة الصحابة الاول من قريش ، فقد انقسم الى قسمين اصبحا فيما بعد حزبين سياسيين دينيين هما : الحزب العثماني ( نسبة الى عثمان بن عفان ومن بعده بني أمية ) وحزب آل البيت الذي قامت حوله حركة التشيع . أما التيار البدوي فتمخض عن حركة الخوارج كما اسلفنا ، التي حملت لواء المعارضة للحزبيين القرشيين : العثماني والتشييع لآل البيت . وفي هذه البواكير الاولى يجد الباحث اصول الحزبية السياسية في الاسلام .



## الحواشي :

- (١) gabrieli (F) , Muhammad and the conquests of islam, world university, London, 1968, p. 64
- (٢) ابن هشام ، القسم الأول ، ص ٥٨٥ .
- (٣) انظر تفاصيل هذه القضية في : ابن هشام ، القسم الأول ، ص ٥٨٤ - ٥٨٦ .
- (٤) انظر ابن سعد ، الطبقات ، ط صادر ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
- (٥) انظر نص الوثيقة في سيرة ابن هشام ، ط . السقا ، القسم الأول ، ص ٥٠١ وما بعدها وانظر دراسة مفصلة لها في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ٨٦ وما بعدها .
- (٦) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط ، صادر ، بيروت ١٩٥٧ ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٧) ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .
- (٩) الطبري ، ط ابو الفضل ابراهيم ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .
- (١٠) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .
- (١١) انظر هذه الروايات وأخبار النقاش والمناوشات وملابس الأحداث التي انتهت ببسمة ابي بكر في : الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٨ - ٢٢٣ .
- (١٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .
- (١٣) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .
- (١٤) انظر جدول الهدايا الاضافية التي قدمها الرسول لفئة « المؤلفه قلوبهم » في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ١٥٧ .
- (١٥) الطبري ، ج ٣ ، ص ٩٣ .
- (١٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
- (١٧) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا ص ٢٠٦ ، ٢١٩ .
- (١٨) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .
- (١٩) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .
- (٢٠) انظر ترجمته في : ابن سعد ، ج ٣ ، ص ٥٣١ وما بعدها .

(٢١) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، وجاء عند المسعودي : « تخلصي الاوس عن معاينة سعد خوفا ان يفوز بها الخزرج » .

(٢٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤) جاء ( الحديث الذي ادلى به ابو بكر في اجتماع السقيفة قوله : « وان العرب لا تعترف بهذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، وهم اوسط العرب دارا ونسبا » ) . ( الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ) وكلمة « اوسط » تعني اشرف ، وكلمة « دارا » تعني بلدا اي مكة .

(٢٥) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ط. محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٢٨) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٢٩) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٣٠) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

(٣١) اثبتت الدراسات التاريخية والحسابات الفلكية الدقيقة ان الرسول توفي الاثنين في ١٢ ربيع الاول سنة ١١ هـ وذلك يوافق الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢ م .

(٣٢) في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد في « الكامل » لابن عدي نقرا ما يلي :

« والحديث في ذلك ما حدثنا قتبية ، حدثنا وكيع عن اسماعيل بن ابي خالد عن عبد الله البهي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما مات لم يدفن حتى ربا بطنه وانثنت خنصره . قال قتبية : حدثنا بهذا الحديث وكيع وهو بمكة وكان حج فيها الرشيد فقدموه اليه فدعا الرشيد سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد ، فاما عبد المجيد فقال : يجب ان يقتل هذا ، فانه لم يرو هذا الا وفي قلبه عشب للنبي صلى الله عليه وسلم .

فسال الرشيد سفيان بن عيينة فقال : لا يجب عليه القتل ، رجل سمع حديثا افرواه لا يجب عليه القتل . ان المدينة ارضي شديدة الحر ، توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، فترك الى ليلة الاربعاء لان القوم كانوا في صلاح امر امة محمد ، واختلفت قريش والانصار ، فمن ذلك تغير » .

(٣٣) من اجل اخبار الوفود عامة وما جرى لها مع الرسول ، وخبر وفد مسلمة ، انظر : ابن هشام ، قسم ٢ ، ص ٥٦٠ وما بعدها ، والطبري ج ٣ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٣٥) انظر الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وانظر ايضا : الاغانى ، ط دار الكتب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، حيث ينسب هذا الشعر الى الحطيئة .

(٣٦) « ... عن ابي معشر قال : ولما تولى يزيد بن عبد الملك ( الخلافة ) نزع ابا بكر بن محمد بن عمرو الانصاري عن المدينة ، وولاهها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري . فدخل عليه ( ابي على الخليفة يزيد بن عبد الملك ) ابو بكر بن محمد ، فلم يعرف ( يزيد ) حقه ، قال : ابو بكر : هذا شيء لا تملكه قريش الانصار ، وجلس في منزله » انظر : الازدى ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٥ - ٦ .

